



الخميس 7 مايو 2020 08:04 م

صاحب أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى.. ولم يشهد التاريخ مثله في قوة الحفظ.

• كان يقول قبل موته: "كنت عن 1080 رجلاً ليس فيهم إلا صاحب حديث".

• ما وضع في كتابه الصحيح حديثاً إلا اغتسل وصلى ركعتين!

الإمام الجليل والمحدث العظيم "محمد بن إسماعيل البخاري" أمير أهل الحديث وصاحب أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى، يقول: "صنفت الصحيح في ست عشرة سنة، وجعلته حجةً فيما بيني وبين الله تعالى".

لم يشهد تاريخ الإسلام مثله في قوة الحفظ ودقة الرواية والصبر على البحث مع قلة الإمكانيات، حتى أصبح منارةً في الحديث وفاق تلامذته وشيوخه على السواء.

يقول عنه أحد العلماء: "لا أعلم أني رأيت مثله كأنه لم يخلق إلا للحديث".

• نسبه ونشأته:

هو: "أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخاري"، وكلمة بردزبه تعني بلغة بخاري "الزراع"، وقد لد أبو عبدالله في يوم الجمعة الرابع من شوال سنة أربع وتسعين.

• قوة حفظه وذاكرته:

وهب الله البخاري منذ طفولته قوةً في الذكاء والحفظ من خلال ذاكرة قوية تحدى بها أقوى الاختبارات التي تعرض لها في مواقف عدة، ولما بلغ ست عشرة سنة كان قد حفظ كُتُب ابن المبارك ووكيع.

وقال محمد بن أبي حاتم الوراق: "سمعت حاشد بن إسماعيل وآخر يقولان: كان أبو عبدالله البخاري يختلف معنا إلى مشايخ البصرة وهو غلام فلا يكتب حتى أتى على ذلك أيام فكنا نقول له إنك تختلف معنا ولا تكتب فما تصنع فقال لنا يوماً بعد ستة عشر يوماً: إنكما قد أكثرتما عليّ وألحمتما فاعرضا عليّ ما كتبتما، فأخرجنا إليه ما كان عندنا فراد على خمسة عشر ألف حديث فقرأها كلها عن ظهر قلب، حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه، ثم قال: "أترون أني أختلف هدراً، وأصعب أيامي"، فعرفنا أنه لا يتقدمه أحد.

• طلبه للحديث:

تنقل "البخاري" بين بلدان عدة طلباً للحديث الشريف ولينهله من كبار علماء وشيوخ عصره في بخاري وغيرها، وروي عن البخاري أنه كان يقول قبل موته: كنت عن ألف وثمانين رجلاً ليس فيهم إلا صاحب حديث كانوا يقولون "الإيمان قول وعمل يزيد وينقص".

وبدأ البخاري رحلته من مسقط رأسه بخاري، فقد سمع بها من جماعة ليسوا من كبار شيوخه ثم رحل إلى بلخ وسمع هناك من "مكين بن إبراهيم" وهو من كبار شيوخه، وسمع بمرور، كما سمع بنيسابور من جماعة من العلماء وبالري من "إبراهيم بن موسى".

وفي أواخر سنة 210هـ قدم البخاري العراق وتنقل بين مدنها ليستمع من شيوخها وعلمائها، وقال البخاري: "دخلت بغداد ثمان مرات في كل مرة أجالس أحمد بن حنبل، ثم رحل إلى مكة، وسمع بالمدينة من عبد العزيز الأوسي وأيوب بن سليمان بن بلال وإسماعيل بن أبي أويس، وأكمل رحلته في العالم الإسلامي آنذاك فذهب إلى مصر ثم إلى الشام.

• صحيح البخاري

يروي البخاري أنه بدأ التأليف وعمره 18 سنة فيقول: "في ثمان عشرة جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقوابيلهم، وصنفت كتاب التاريخ إذ ذاك عند قبر رسول الله في الليالي المقمرة، وكنت أختلف إلى الفقهاء بمرور وأنا صبي فإذا جئت أستحي أن أسلم عليهم فقال لي مؤدب من أهلها كم كتبت اليوم فقلت: اثنين وأردت بذلك حديثين فضحك من حضر المجلس فقال شيخ منهم لا تضحكوا فلعله يضحك منكم يوماً".

عدَّ العلماء كتاب الجامع الصحيح المعروف بـ"صحيح البخاري" أصح كتاب بعد كتاب الله، ويقول عنه علماء الحديث: "هو أعلى الكتب الستة سندًا إلى النبي- صلى الله عليه وسلم- وذلك لأن أبا عبد الله أسن الجماعة وأقدمهم لقبًا للكبار أخذ عن جماعة يروي الأئمة الخمسة عنهم".

ويقول في بعض الروايات:

· أخرجت هذا الكتاب من زهاء ست مائة ألف حديث.

ما وضعت في كتابي الصحيح حديثًا إلا اغتسلت قبل ذلك واصلت ركعتين.

ما أدخلت في هذا الكتاب إلا ما صح وتركت من الصحاح كي لا يطول الكتاب.

• اجتهاده:

يروى أحد تلامذته أنه بات عنده ذات ليلة فأحصى عليه أنه قام وأسرج يستذكر أشياء يعلقها في ليلة ثمان عشرة مرة، وقال محمد بن أبي حاتم الوراق كان أبو عبد الله إذا كنت معه في سفر يجتمعنا بيت واحد إلا في القيظ أحيانًا، فكانت أراه يقوم في ليلة واحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة في كل ذلك يأخذ الفداحة فيوري نازًا ويسرج ثم يخرج أحاديث فيعلم عليها.

وروي عن البخاري أنه قال: لم تكن كتابتي للحديث كما كتب هؤلاء.. كنت إذا كتبت عن رجل سألته عن اسمه وكنيته ونسبته وحمله الحديث إن كان الرجل فها، فإن لم يكن سألته أن يخرج إلي أصله ونسخته فأما الآخرون لا يبالون ما يكتبون وكيف يكتبون.

ظهر نبوغ البخاري مبكرًا فتفوق على أقرانه، وصاروا يتتلمذون على يديه، ويحتفون به في البلدان، فقد روي أن أهل المعرفة من البصريين يعدون خلفه في طلب الحديث وهو شاب حتى يغلبوه على نفسه ويجلسوه في بعض الطريق فيجتمع عليه ألوف أكثرهم ممن يكتب عنه وكان شابًا لم يخرج وجهه.

وروي عن أبي الأزهر أنه قال: كان بسمرقند أربعمائة ممن يطلبون الحديث فاجتمعوا سبعة أيام وأحبوا مغالطة البخاري فأدخلوا إسناد الشام في إسناد العراق وإسناد اليمن في إسناد الحرمين فما تعلقوا منه بسقطة لا في الإسناد ولا في المتن.

• عمله بالتجارة:

عمل البخاري بالتجارة فكان مثلاً للتاجر الصدوق الذي لا يغش ولا ينقض نيته مهما كانت المغريات.. روي أنه حملت إلى البخاري بضاعة أنفذهما إليه ابنه أحمد فاجتمع بعض التجار إليه فطلبوها بريح خمسة آلاف درهم فقال انصرفوا الليلة فجاءه من الغد تجار آخرون فطلبوا منه البضاعة بريح عشرة آلاف فقال إني نويت بيعها للذين أتوا البارحة.

• كرمه وسماحته:

قال محمد بن أبي حاتم كانت له قطعة أرض يؤجرها كل سنة بسبع مائة درهم فكان ذلك المؤجر ربما حمل منها إلى أبي عبد الله فثاء أو قناتين لأن أبا عبد الله كان معجبًا بالقضاء النضيج وكان يؤثره على البطح أحيانًا فكان يهب للرجل مائة درهم كل سنة لحمله القضاء إليه أحيانًا. وكان يتصدق بالكثير يأخذ بيده صاحب الحاجة من أهل الحديث فيناوله ما بين العشرين إلى الثلاثين وأقل وأكثر من غير أن يشعر بذلك أحد وكان لا يفارقه كيسه.

• محنة البخاري:

تعرض البخاري للامتحان والابتلاء، وكثيرًا ما تعرض العلماء الصادقون للمحن فصبروا على ما أودوا في سبيل الله، ولقد حسد البعض البخاري لما له من مكانة عند العلماء وطلاب العلم وجاهير المسلمين في كل البلاد الإسلامية، فأناروا حوله الشائعات بأنه يقول بخلق القرآن، فامتنوه في المجلس فلما حضر الناس مجلس البخاري قام إليه رجل فقال يا أبا عبد الله: ما تقول في اللفظ بالقرآن مخلوق هو أم غير مخلوق؛ فأعرض عنه البخاري ولم يجبه، فقال الرجل يا أبا عبد الله فأعاد عليه القول فأعرض عنه، ثم قال في الثالثة فالتفت إليه البخاري وقال: "القرآن كلام الله غير مخلوق وأفعال العباد مخلوقة والامتحان بدعة"، فشغب الرجل وشغب الناس وتفرقوا عنه وقعد البخاري في منزله.

وقالوا له بعد ذلك ترجع عن هذا القول حتى نعود إليك قال لا أفعل إلا أن تجئوا بحجة فيما تقولون أقوى من حجتني، وكان يقول أما أفعال العباد فمخلوقة فقد حدثنا علي بن عبد الله حدثنا مروان بن معاوية حدثنا أبو مالك عن ربي عن حذيفة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله يصنع كل صانع وصنعتة".

• وفاته:

توفي البخاري- رحمه الله- ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين وقد بلغ اثنتين وستين سنة، وروي- في قصة وفاته- محمد بن محمد بن مكى الجرجاني قال: سمعت عبد الواحد بن آدم الطواويسبي يقول: رأيت النبي- صلى الله عليه وسلم- في النوم ومعه جماعة من أصحابه وهو واقف في موضع فسلمت عليه فرد علي السلام فقلت ما وقوفك يا رسول الله قال أنتظر محمد بن إسماعيل البخاري فلما كان بعد أيام بلغني موته فنظرت فإذا قد مات في الساعة التي رأيت النبي- صلى الله عليه وسلم- فيها.

حم الله الإمام البخاري رحمة واسعة وجزاه الله- عن الإسلام والمسلمين وحديث رسول الله- صلى الله عليه وسلم- خيرًا.